قضايا الأدب والأدباء

... ويغمزني النجم البعيد فأستفني !

بقلم الشاعر القروي

كتب الكاتب العربي المهجري المعروف الاستاذ نظير زيتون مقالا في مجلة ((الضاد)) الحلبية منذ اشهر يشيد فيه بأدب المهجر ويشكو تقصير الحكومات العربية عن ايفاء شعراء المهجر وكتابهم وصحافتهم حقهم من الرعاية واقتصارها على دعوة بعضهم الى زيارة الاقطار العربية وتكريمهم . وقد صرح الكاتب بان الجمهورية العربية المتحدة لم تعدل في هذا التكريم حين قدمت بعضهم على بعض . وقد جاء في هذه النظرة اشارته الى ان الجمهورية العربية المتحدة قد خصت الشاعر القروي ـ دون سواه من ادباء المهجر ـ بحصة الاسد من بحبوحة وضيافة واسعة ومرتبات شهرية دائمة ومكافأة مالية سخية ، فكتب الشاعر القروي ، بعد تردد طويل ، هذا الرد الذي يبدو منه لكل منصف انه انما اراد فيه عبرة وذكرى لنشئنا العربي ، لا عرضا لنماذج من جهاده القومي .

ويسر ((الآداب)) ان تتفرد بنشر هذا المقال الرائع للشاعر القروي الكبير .

أخي النظير المشع زادنا الله به نورا ،

قرأت مقالك في « الضاد » الحلبية الغراء مصدرا بكلمة الثناء « العبدلية » التي يستحقها قلمك الزخار بالاشجاع . مشنفة الاسماع . مطربة الايقاع . ويفرضها نثرك الشعري ، بمختار درره ، وابكار معانيه . ولقد سرني ذودك عن الادب المهجري . وتفننك في وصف محاسنه ومزاياه . وهززتني غيرتك على اربابه اخوانك . وصحة نقدك « لتبني الحكومات دعوة بعض الادباء الهدامة الى استعمال العامية دون الفصحى في الحوار والحديث والاغاني . وان المراقبة تقتصر على ما ينبو عنه الذوق والتزمت . اما ما تنبو عنه القومية واللغة فلا بأس » . واعجبني على الخصوص مشاركتك أخانا الاديب الياس قنصل في التنبيه الى الصحافة المهجرية ذات الفضل العظيم على حرية الاوطان العربية واستقلالها . دونما ذبذبة واحتيال . ولعب على الحبال . بل بعقيدة وجهاد . وافتداء بالمال . وقوت العيال . ولقد طالما نبه اخوك وحذر من خسران الاقليم الثالث الذي هو الاقليم المهجري . واشار الى ان هذا الاقليم المخلص في حبه وولائه . لا يتطلب لنفسه من الوطن واسياده غير مدرسة عربية تبقي على لغته الام . حفظا لصلة الاباء بابنائهم في الغربة السحيقة . وصلتهم جميعا بوطنهم العربي في مطلع الشمس . اعجبني منك هذا الغضب « لكرامة التراث المهجري المستوي على العرش في هياكل الاقداس . الادب الصوفي الذي لا يمن ولا يطالب باجر » وان لم اقرك على نعوت (الاذن الصماء . القلب الملتحف بالغيوم السوداء . الذهن التائه في مفاوز الكبرياء . وضباب السياسة الشمطاء) مما ينعرج بغضبك المقدس على سبيله الاصلاحي السوي . اعجبني منك تنزيه الادب المهجري عن المصالح الشخصية . وطبعا انت لا تقصد التعميم . اذ لا يخفى عليك ما في هذه النزاهة من تفاوت في الدرجة . وما في هذه الخدمة من تباين في الحرارة والتضحية . ولا تجهل ان ممن اشتغلوا بصناعة القلم العربي في المهجر من لا يستحق غير لعنة الاجيال فهم استخدموا اللغة العربية لسبها وسب احرارها حتى قال اخوك في احدهم :

اعجب ما يعجبني مستعجم ... يسبني بلغة يسبها
وحقها ان لم أكن احبه ... سامحته لانني احبها

اما تركيزك على محاباة الجمهورية العربية اخال القروي وتخصيصه دون سواه من ادباء المهجر « بحصة الاسد من بحبوحة وضيافة واسعة ومرتبات شهرية دائمة ومكافأة مالية سخية » فاني لا اعده الا من قبيل حبك الصراحة وجرأة الجهر بما تعتقده خطأ او صوابا . واني لاشاركك الحيرة في سبب هذا الهوى . ولا ارده الا الى علة فلكية تطالع الناس بالسعود والنحوس اعتباطا . وهو ما اصطلحوا على تسميته بسخرية الاقدار . ولقد حالفني مثل هذا الحظ منذ ثلث قرن ، لو تذكر ، على يد مجلة الشرق الصنبولية . اذ آثرتني من فضلها العميم على الادب العربي في المهجر . اثر صدور ديواني « الاعاصير » بدعوة واسعة لتكريمي فلبتها الجالية باسرها ، ممثلة بخيرة تجارها ومزارعيها وصناعييها ، فضلا عن ادبائها ومفكريها . وانهالت عليها رسائل وبرقيات التحبيذ من بعض قادة الثورات ورجال الفكر في العالم العربي مما لم يسبق له مثيل . ولم يتخلف من العشرين جمعية وناد في صنبول عن المشاركة في ذلك الحفل الحافل سوى جمعية واحدة هي التي كنت مكرسا اعظم خدماتي لها وصرت فيما بعد رئيس تحرير جريدتها . ولم تكن حجتها في تلك المقاطعة الا ان المبادرة سرقت منها . وانها اولى بها من مجلة الشرق .. فاذا صح تعليلي هذه الاحتفاآت بدورة فلكية حتمية التوقيت كزيارة بعض المذنبات وحدوث الخسوف والكسوف مثلا . فاني يحق لي ان انتظر مهرجانا لم يحلم بمثله شاعر عربي قط وذلك حوالي سنة ١٩٩٠ ان شاء الله ...

ولماذا تذهب واذهب بعيدا في الامثلة على اني مجدود مسعود من الدولة واحرار ابنائها ؟ الم تقع انت يا اخي في نفس ما اخذت على سواك من المحاباة ؟ انسيت مقالك المنشور في مجلة الثقافة الدمشقية ؟ ذلك المقال الذي لا تزال الصحف ولا يبرح الكتاب والناقدون يتناقلون فقرات منه تخجل اروع قطع المنظوم ؟ فهل هبطت عليك تلك الايات الساحرات من سماء الواقع الذي تؤمن به ، أم هي شطحات صوفية وتهاويل خيالية رسمتها عفوا على القرطاس . فجاءت فتنة لكل ذي فهم واحساس ؟ وهل حكتها حلة كسروية ، وفصلتها على قد صاحبها بدقة وقياس ، ام درزها قلمك الصناع ثوبا جاهزا مشاعا لكل لابس من الناس ؟

هذا ، ولعل اخي النظير لا يجهل ان محاباة الحظ اياي لم تكن ايجابية فحسب بل سلبية ايضا . فما اخال اديبا عربيا في المهجر كلها فاز بمثل نصيبي من شتائم اعداء العروبة وافتراآتهم . ولقد اقذع فرحات في هجو انطون سعاده وحزبه حتى قال مرة له ولهم :

« عليك بما وراءك من حمير
فما خلق الضراغم « للركوب »

فكان رد فعل هذا الهجاء الفرحاتي مضاعفة الحملة على القروي وتسخير جريدتي الحزب وهما « سوريا الجديدة » و « الزوبعة » للنيل منه ومن ادبه وشعره بمقالات متواليات جمعوا بعضها لا كلها في كتاب ضخم مع ان القروي لم يتناول شخص الزعيم او احدا من جماعته واضرابهم الا بكثير من مثل هذا الشعر :

الا رب اخوان علي تحاملوا
كأن لم يكونوا قبل من خيرة الصحب
اثاروا من العدوان حولي « زوابعا »
فما حركت مني سوى حبق الحب
وهون عندي السب ان لبعضهم
زغاليل اطفالا تعيش على سبي !

ولقد سبقك اخونا الاديب المهجري المرحوم جورج عساف منذ ١٧ عاما الى غمري بالبحبوحة واليسر يوم فاضل بين حالة ادبائنا في البرازيل وزملائهم في الارجنتين . فخصني بالتنويه . وضاعف الارقام ، جاعلا الخمسين مائتين فاستفزني لنظم القصيدة التي اقول فيها:

وتضعيفك الارقام فأل مبارك
واني لارجو الله الا تكذبا
ولكنني بلغت قومي رسالة
سيودعها التاريخ سفرا مذهبا
وافرغت ريان الصبا في سطورها
اتستكثر الخمسين كنطا على الصبا
فلو انا ازمعت الرجوع الى الحمى
لطارت ولم ابلغ مطار الحمى هبا
فلا عمرت بيتا جديدا مؤثثا
ولا رممت بيتا عتيقا مخربا
فخذ كل ما ردت علي قصائدي
من النقد ... واضمن لي معاشا مرتبا
وكوخا حقيرا يغمر النور قلبه
ومكتبة حول السرير ومكتبا

الى اخر القصيدة .. فأما المعاش المرتب فقد ضمنته والحمد لله منذ نحو خمس سنوات وان يك انقطع معظمه منذ سنتين ولم يبق منه ، بعد ان نقصته الضريبة وهبوط العملة من طرفيه ، الا رمز لا يكاد يكفي اديبا شهيرا مثلك ثمن سواكير وطوابع بريد لمراسلة اخوانه المنبثين في كل قطر . فلتقر عين الحاسد وليمسك الطامع ريقه ـ اجلك الله وخلاك ذم !

واما الكوخ والمكتبة والمكتب ... فكل ذلك لم يزل حلما جميلا لم اباشر السعي الى تحقيقه الا هذا الشهر . لان المكافأة السخية التي وهمت انت فقلت (انها عرفت سبيلها الى جيب القروي وان لم يصدر ديوانه) هي في الحقيقة ما عرفت سبيلها الا الى خزانة بنك مصر لبنان ببيروت ... وظلت مستقرة فيها كل هذه السنوات ، لم يحلل ضميري الوطني التصرف بها على حاجتي اليها الا بعد ان زال شكي في صدور الديوان ... وبعد ان جاءني استاذنا الكبير ساطع الحصري باول نسختين منه وقال انه يوزع حسب مرادي الاول من طبعه . وكنت قد آليت لو لم يصدر هذا العام ان ارد المكافأة السخية الى مصدرها لانني والحالة هذه لم اعد اميزها عن محاولة استعمارية لشراء سكوتي وخنق صوتي .. ولاني كان ولا يزال هدفي الاول من طبع كتبي انما هو تبليغ رسالتها الى صدور الشباب العربي لا تبليغ ارباحها الى جيبي .

فيا اخي المهجري الكبير . والنظير المنقطع النظير . لا اكتمك اني ترددت طويلا قبل ان اخوض هذا الحديث معك . ولم اقرر نشره الا بعد تيقني ان فيه عبرة لمن لم يرق فهمهم الى مستوى العقيدة الوطنية عند اخيك ولا ادركوا عمق حسه بالحرام والحلال . في كسب المال . بل زهده فيه وحرمانه الطوعي منه ، ما دام يستغني بقليله عن كثيره .

بلغت من الرزق الحلال كفايتي
فيا ارض جودي بالملايين او ضني
واني ليدعوني الغنى فاجيبه
ويغمزني النجم البعيد فاستغني

وانك لتذكر اكتفائي من حفلة مجلة الشرق الآنفة الذكر بريعها الادبي وتوزيعي ريعها المادي على مشاريع الجالية المفيدة . وكيف استكثر علي يومئذ احد عملاء الاستعمار هذا الصنيع . واستبعد الى حد الاستحالة (ان يقوم به صعلوك حقير مثلي) فكذب المشيدين به تكذيبا واتهمهم في جريدته اليومية بالدعاوة الزائفة لشويعر افاق افاك فاستفزني الخائن لنشر هذه الرباعية .

قولوا لمن ذمني في رد عارية
لو لم ارم بذلها ما كنت اقبلها
دعني وشأني وخذ فيما خلقت له
هذي سبيل الى العلياء تجهلها
كم نعمة نبذ تف الظفر انبذها
تدور انت على الابواب تسألها
لا عذر للحر في الاموال يجمعها
الا اذا كان بالمعروف يبذلها

وبمثل هذا العذر قبلت الهبة السنية التي جادت بها كف الاخ العربي السمح الشيخ عبد الله الجابر الصباح . ولكم نصحني ناصح ان ابني بها في بربارتي الكوخ الذي طالما حلمت به بعد تشردي خمسين عاما في غربتي ووطني فلم انكث عهدي وانفقتها مع فائدتها القانونية في سبيل العلم على اخي القريب واخي البعيد وكان آخرها الف واربعمائة ليرة لبنانية وزعتها في مصر سنة ١٩٦١ ونال منها الاديب الصحافي الاستاذ احمد توفيق المدني رئيس البعثة الجزائرية في القاهرة مبلغ الف ليرة « في سبيل تعليم اللغة العربية في الجزائر المستقلة ان شاء الله » وقد صح الفأل واستقلت باذن الله ...

ولم تخل سماء هذه الهبة (الصباحية) ايضا من غبار كدر صفاءها . واجهم سحابها . وهاج اخاك فاطلق سينيته التي منها هذه النفثة :

رويدك رهن المحبسين فانني
من الزهد والحرمان رهن المحابس
امر من الحساد في كل بلدة
باطلال اخلاق كبيتي دوارس
ولولا اباء عن جدودي ورثته
لبث الليالي غارقا في الطنافس
يفيض علي السعد من كل جانب
فاجعله وقفا على كل تاعس

وليس الجاه باقل فتنة من الذهب في اضعاف الروح القومية وايقاع العقائديين في تجربة التحاسد والتزاحم على الكراسي . فكان لزاما على كل مؤمن برسالة الوحدة ضرب المثل الصالح في العزوف عن هذه المغريات . وهذا ما اوجب اصراري على الاعتذار للسيد عادل عسيران حين كان رئيسا للمجلس اللبناني عن تشرفي بقبول وسام الارز . الى ان اذاعت الصحف خبر انعام الرئيس جمال عبد الناصر على الشاعر القروي بوسام . حدث هذا دون مشاورتي طبعا . وظل الوسام امدا غير قصير في درج

الامين العام لوزارة الثقافة والارشاد في الاقليم السوري الدكتور يوسف شقرا يذكرني به كلما زرت دمشق . وانا حائر فازع الى الارجاء والتأجيل حتى قررت عرض الواقع على الرئيس شهاب واستئذانه في ان احوز وسام زميله واخيه بعد ان امتنع علي الرأي وحرية الاختيار . فابتسم ابتسامته العذبة الرضية وقال اذن لا محيص لك عن قبول وسامنا بعد ! قلت امركم مطاع يا سيدي ووسامكم انعام لا استحقه .

وليس عزوفي عن الاوسمة الحكومية من باب الاعراض عن الدنيويات فحسب بل ان لي رأيا عقائديا اعمق معنى وابعد غرضا . ان هزيمتنا النكراء في فلسطين لطخت وجه كل عربي على سطح الارض بالعار . واشرف وسام على الصدر واكبر وصمة على الجبين لا يلتقيان . ولم يسمع قط ان الجوائز والنياشين تمنح للجنود قبل ربح المعركة . . فهذه الانعامات السامية في شرعي يجب قصرها على كل اجنبي ذي مروءة يسدي الينا يدا او يسعفنا على احقاق حقنا وكشف ظلامتنا . اما العربي فاي فضل له اذا ذاد عن نفسه وخدم امته وبلاده .

ثم انه كيف يجوز للرئيس شهاب ان يمنحني ذلك الوسام وقد منحني قبله اسمى منه بقمعه فتنة سنة ٥٨ وربطه طوائف لبنان المتعددة برباط عجائبي نسل خيوطه واليافه من حبل وريده ونياط قلبه ؟ وكيف ساغ لعبد الناصر ان يهدي الي وساما من تلك الرتبة وقد سبق فانعم علي باسمى منه في ثورة ٢٣ تموز ؟ وبعد ان قلدني وشاح النيل بتأميم القناة ؟ وبعد ان استحدث لي وساما طريفا بمشروع السد العالي ؟ وبعد ان طوق عنقي بقلادتين من دراري السماء لادرر الارض بتعجيله انتصار ثورتي الجزائر واليمن . واعداده قوة الصواريخ ورباط الطائرات لارهاب عدو الله والانسانية ولطحنه طحنا باذن الله ؟

ان كل مفخرة عربية يضيفها الى مفاخرنا بطل عربي ، رئيسا كان او مرؤوسا ، هي انعام علينا وتكريم لنا . ولو برز اليوم في سوريا او العراق بطل سياسة وقيادة يرأب الصدع ويلم الشمل ويجمع الشتات ويحقق امنية الوحدة في الموعد القريب لزين صدري بالف وسام ووسام وغرقني في نعيم الف عام وعام . واني لاعاهد كل اخ عربي حر مجاهد اني اعتذر عن قبول اي مساعدة مالية من اي دولة عربية غير داخلة في الوحدة . ففي سبيل العروبة افنيت العمر . وتيمنا بشروق شمس الوحدة عدت الى الوطن ، ولن احصد الا مما ازرع . وليس اخوك القروي اللبناني خيرا من اخيه القروي السوري اذا انقطع غيثه ومحل موسمه !

واذا كان الادب المهجري « قد زرع الضياء . واستنبت الاسحار » ، كما جاء في احدى سجعاتك الساحرة ، فلا تلومن الاسحار . يا شقيق الكنار . اذا هي لم تقفز قفزا الى رابعة النهار . ولئن كنا حقا قد زرعنا انوارا ، فلنعيد ولنفرح لان زرعنا لم يمحل . ولان حصيدنا يملأ البيادر . وقطوفنا تثقل الغصون والمخارف . وما هذا الحصيد وهذه القطوف الا ثورات وانتصارات في ميادين الحرية والاستقلال . ولو اننا زرعنا دراهم ودنانير لانتظرنا ان نجني مناجم ذهب والماس . .

ولقد اصبت نصف الحقيقة يا اخي حين تساءلت « اهي حداثة النعمة في الحكم والسلطان ؟ أهي المراهقة في مفهوم الدولة والبنيان ؟ »

فالحقيقة الكاملة انها ليست الحداثة ولا المراهقة . بل هي الطفولة ! اجل انها الطفولة يا صديقي . وهل رأيت طفلا يعول امه واباه ؟ فصبرا الى ان يتم كيان الدولة العربية المتحدة وترتفع اعلامها من الخليج الى المحيط ، تجد « ان العلم والادب سيكون لهما في ظلالها عروش ومحاريب » ان شعور العلماء والادباء نحو دولتهم الناهضة يجب الا يختلف عن شعور ام نحو رضيعها . فالدولة ، كل دولة ، وليدة الفكر الحر . والقلم البليغ . وما دامت لم تبلغ سن الرشد فهي بعد مفتقرة الى الذين اوجدوها .

ان احرار الامة العربية لا يزالون مطالبين بالعطاء . . ولن تطالب الدولة بالوفاء الا بعد بلوغها اشدها وبعد ان يكون الذين غرسوا زيتونها ونخيلها قد امسوا ترابا . ولعمري لئن نالنا نحن حفنة من بر دولتنا فانما هي من انصبة امثال الافغاني والكواكبي واليازجي والبستاني واديب اسحق فالعروبة مدينة لهم قبل ان تكون مدينة لرعيلنا الاخير من مقيمين ومغتربين . ومهما يك حظنا ضئيلا فانه بالنسبة الى حظ اولئك الرواد والمجاهدين لكبير جدا . وحسبنا اننا كحلنا عيوننا بالنور الذي ماتوا وهم يحلمون به .

فانا اقرك على وجوب اهتمام وزارات الثقافة والارشاد العربية بتراثنا الادبي المهجري وجمعه قبل ان تتبدد ثرواته . وتضيع كنوزه . ولكني لا اوافقك في نصب الموازين . وتوزيع الانصبة . ولفت الانظار والقلوب . الى الادراج والجيوب . مثل كم نال فلان من عطاء الدولة . وبكم جوزي فلان . . فما اخال هؤلاء الرفاق يرتاحون الى ما عرضت له . ولا ارتاب في ان مرادهم في الجهاد اكبر من « اللحوم والعظام والسلب . . » وان وضعك الربح المادي في المقام الاول عندي واحتسابي به فيئا ومغنمة ، سواء اصدر ديواني ام لم يصدر . . على الرغم من طول عشرتك لي وخبرتك بي . قد اوجب علي التفكير جديا في هذا الموضوع لا لنفي هذه التهمة عني بما اكرهت على ايراد بعضه لا كله من امثلة على التعفف وسمو الهدف فحسب ، بل تذكيرا للشباب ان يجعلوا الانانا قدوة في التجرد ومضرب مثل على التضحية في سبيل عروبتهم ووحدتهم ، لا منشأ تخاذل وفشل وذهاب ريح . . لقد طالما برهنا اننا اشد الخلق حماسة في وطنية الغضب . واحسنهم بلاء في محاربة الاستعمار .

اما وطنية الرضى . وطنية الوعي الروحي الهادىء الحازم الرصين العميق . وطنية قمع « شهوات الاستئثار بالحكم والسلطان » التي شكوت منها . هذه الوطنية لسوء الحظ لم نزل افتر الشعوب واقعدها عن ميادينها . بوطنية الغضب وحدها نقتل اعداءنا . حتى اذا فزنا بحريتنا شرعنا في تقتيل بعضنا بعضا ، ولو تحلينا بوطنية الرضى لانصرفنا الى الانشاء والتعمير ومداركة ركب الحضارة الذي تخلفنا عنه عشرات السنين . بوطنية الرضى لا وطنية الغضب خاض سيف الاسلام اعنف واشرس معركة وانتصر على اكبر واخطر عدو على الاطلاق . يوم تنحى لاخيه الجراح عن منصب القيادة فضرب المثل الاعلى في العظمة والنبل وبطولة التفاني وقهر النفس . في سبيل الواجب المقدس ، والمقدم على كل اعتبار شخصي فردي مهما غلا . فهل يعيد التاريخ نفسه يا اخي ؟

الحمد لله انك قلت : لا يعني انني متشائم . واني سلبي . ولكنها حالة شاذة غير طبيعية . قد تقصر او تطول . ولكنها ستزول . . والسلام عليك ممن لا يذكر لك الا كل يد ادبية بيضاء .

اخيك الشاعر القروي

البربارة ٨ ايلول ١٩٦٣
٢٠ ربيع الثاني ١٣٨٣